

الذهنية الثقافية المهاجرة بالمغرب

إقليم خريكة نموذج

عبد الهادي أعراب

كلية الآداب، الجديدة، المغرب

ملخص:

نراهن في هذه الورقة، على مقارنة سوسيو-أنثروبولوجية للهجرة من حيث هي ذهنية ثقافية قائمة الذات، لأنها استطاعت عبر مجموعة من المراحل التاريخية والتجارب المهاجرة المكثفة أن تصنع لنفسها أطرا مرجعية للتفكير والسلوك، توجه أشكال واستراتيجيات تدبير الحاضر والمستقبل. يتعلق الأمر في اعتقادنا بثقافة مكتملة للهجرة أنتجت لغة خاصة ومصطلحات وتعبير وصيغ كلامية، كما أنتجت في الآن نفسه شبكة ثابتة تمارس عملها التهجيري واقعا.

هي حالة مجتمعية مغربية، تكشف عمق التحولات الثقافية التي مارستها الهجرة بمجتمع الانطلاق و امتداد آثارها القوية على كل مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والقيمية والعلائقية للأفراد الذين أمسوا لا يفكرون إلا في الهجرة بمختلف الوسائل والسبل التي اجتهدوا في ابتكارها وتطويرها عبر شبكات خاصة ومتخصصة، دون أي استثناء للسن أو الجنس أو لمتغيرات أخرى كالتمدرس والأنشطة المزاولة، يؤكد هذا المعطى أن الواقع الراهن ذاته، ورغم مجموعة من التحولات الجارية، يشي بأن أعداد المترشحين للهجرة مازال قابلا للارتفاع .

كلمات مفتاحية: ذهنية المهاجرة، ثقافة المهاجرة، متخيل المهاجرة

طرح سؤال الهجرة بشكل أكبر في القرن العشرين قياسا إلى القرون التي سبقتة، علما أنها في النهاية حركة مجالية قديمة قدم التاريخ الإنساني؛ أما اليوم فقد صارت عنوانا لإشكاليات عميقة تهم العديد من المجتمعات والدول من الشمال أو الجنوب على حد سواء، فهي قضية عابرة للقارات وقضاياها الراهنة ما تفتأ تتزايد بالنظر إلى التحولات الجارية في الساحة الدولية والعالمية .

ومن بين أبرز أصناف الهجرة التي اهتم بها الباحثون كثيرا، نجد الهجرة السرية L'Emigration "Clandestine" التي واكبتها تغطيات صحافية ضافية على مدار الثلاثين سنة الأخيرة، وتحديدًا بمنطقة شمال أفريقيا التي قمنا. هكذا تم تجريم هذا النوع من الهجرة غير القانونية المعروفة اختصارا في اللغة العامية بـ "الحريك" (Mahdi, 2003) ؛ وأمام ضعف تراكم علمي سوسيولوجي بالمغرب حول الموضوع، وتحديدًا من داخل "سوسيولوجيا الهجرة" ترك المجال واسعًا لكتابات غير متخصصة دائما، ونقص تحديدًا مجموعة من الكتابات الصحافية والتقارير التي يسمها التسرع والتجني، بعيدا عن منطق البحث والتقصي واستنطاق الواقع الميداني.

حينما نتحدث عن الهجرة الدولية وتحديدًا إلى أوروبا، فإننا نستطيع القول أنها صارت بمثابة ملمح مهم يسم علاقة البلدان المستعمرة بدول الاستعمار¹. وطبعًا هناك مجموعة من العوامل التاريخية والاقتصادية تشرح هذه العلاقة أو بدايتها على الأقل، أفرزت واقعا معقدا صارت فيه الهجرة تطرح مشكلات كبرى ببلدان الهجرة ودول الانطلاق على السواء، لأنها تترجم مجموعة من الاختلالات الاجتماعية والثقافية ببلدان الانطلاق، كما أنها تاريخيا نتاج لمسار من العلاقات اللامتكافئة رسختها الدول الاستعمارية؛ ولهذا فجزء مهم من الآلام والمشاكل التي تعانيها هذه الدول المستقبلية الآن، هي ثمرة إساءاتها التاريخية للبلدان المصدرة للهجرة؛ بعد أن انقلب جزء من السحر على الساحر كما يقال.

ولئن كان العامل الاقتصادي المباشر، في ثمانينيات القرن المنصرم، مع توالي سنوات الجفاف والأزمة الاقتصادية التي عمت المغرب بسبب اختيارات اقتصادية وسياسية محددة، يشرح جزءا كبيرا من هذه الظاهرة، فإنه اليوم لم يعد عاملا مفسرا دقيقا أمام قوة وضغط الهجرة ومستوياتها الاجتماعية والثقافية، فالعامل الثقافي صار محددًا كذلك (Lamchichi, 1999) وهو ما تحاول

¹ . يؤكد مكي بن طاهر أن تطور الهجرة إلى الخارج لا يمكن أن يفهم إلا بالعودة إلى جذورها التاريخية، خصوصا الفترة الاستعمارية، حيث كان التوجه العام آنذاك، يهدف إلى توفير سواعد صلبة لفرنسا التي كانت في حاجة ماسة إليها ، أنظر :

Mekki Bentahar, *Les Arabes en France*, SMER, Rabat, 1979, p. 23.

هذه الورقة توضيحه والدفاع عنه. فقد اخترنا هاهنا الحديث عن الذهنية الثقافية المحروية، لأننا نرى انطلاقاً من مجموعة من الشواهد أن الهجرة استطاعت أن تبلور ثقافة قائمة الذات، فعبّر مجموعة من المراحل التاريخية المتعاقبة والتجارب المحروية المكثفة، تمكنت من أن تصنع لنفسها أطراً مرجعية للتفكير والسلوك، توجه أشكال واستراتيجيات تدبير الحاضر والمستقبل، وبكلمة واحدة استطاعت أن تصنع لنفسها ثقافة بالمعنى الأنثروبولوجي الدقيق للكلمة. ونعني بالثقافة بدءاً من E, Sapir إلى C, Murray Schneider David و Geertz مجموعة من السلوكات متصلة بإدراكات ونماذج مبنية للعالم وكذا اصطلاحات رمزية "Termes symboliques" ومعتقدات .

ووفقاً لهذا التحديد، فالسلوك الثقافي يمكن أن يتجسد في فرد واحد كما يمكن أن يتجسد في المشترك الحاصل بين الفرد وآخرين (الجماعة)، لأن المجتمع تنظيم من الأفراد ضمن مجموعات يقتسمون فيه نفس القواعد الخاصة بإنتاج وتأويل السلوك الثقافي (sherzer, 2012)، حيث تجمع اللغة في الآن ذاته ما هو ثقافي وما هو اجتماعي، الثقافي بالمعنى الذي يتعلق بأشكال التنظيم الرمزي للعالم، والاجتماعي لأنها تعبّر عن الانتماءات الخاصة والعلاقات داخل المجموعة و بين المجموعات، من هنا ثمة علاقة وثقى بين اللغة والثقافة مثلما ذهب إلى ذلك كل من Benjamin Whorf و Edward Sapir و Frans Boas، لهذا سنركز كثيراً على تحليل الخطاب المتجذر في الثقافة وسياقها الاجتماعي، كما نعتبر أن الاستعمالات اللغوية "les usages langagiers" لا تنفصل عن اللعبة اللغوية وفن الحديث مثلما أكد كل من Sapir و Whorf، فاللغة تكون وسائل يفكر من خلالها الأفراد، كما أنها تشرط الفكر الثقافي وتحدد الإدراك و"رؤية العالم" (sherzer, 2012). وبالتوقف عند هذا المفهوم الأخير والمعبر عنه في الألمانية بـ "weltanschauung" وفي الفرنسية بـ "la conception du monde" كما بلوره Guillaume de Humboldt، نكون أمام مفهوم مركبي يحيل على تصور خاص للعالم، يتم من داخل الثقافة ويمكن صاحبه من تكوين صورة للعالم ولذاته.

ولتأطير هذه العناصر منهجياً، اعتمدنا معطيات ميدانية تمم مجتمع الدراسة في مدة زمنية متقطعة تمتد من سنة 2000 إلى 2005، استدعينا فيها أدوات منهجية كيفية مختلفة مثل الملاحظة المباشرة وزيارات متكررة لدواوير قروية وأحياء حضرية أنتجت عدداً مهماً من المهاجرين، كما أجرينا مقابلات ميدانية مع المهاجرين والمرشحين للهجرة أيضاً. وقد شملت الدراسة مجموعة من الأحياء الحضرية (حي الأمل، حي ميسور، الكرم، الفتح، المتيريف). ومجموعة من الدواوير بالجماعات القروية التالية (المفاسيس - الكفاف - بئر مزوي - بني خلف - بولنوار - الفقراء) .

وللإمساك بمنطق فهمهم وإدراكهم لعالمهم ولأوضاعهم وأحلامهم وأمانهم، وباختصار لثقافة الهجرة التي توطر وجودهم الاجتماعي ككل، ركزنا على قراءة اللغة وللمفردات والتسميات والصيغ الكلامية التي يستعملها المهاجرون في أوساطهم المحلية . هكذا رافقتنا تقنية الملاحظة طيلة عملنا الميداني، فسمحت لنا بداية بالتعرف على ميدان البحث من خلال مشاهدة الظواهر المدروسة ومتابعتها (الدواوير القروية – مساكن المهاجرين – أشكال البناء والأثاث .. الخ). أما المقابلة، فأسعفتنا في تجميع المعطيات الكيفية عن الموضوع، بالتواصل المباشر مع المبحوثين عبر عدة من الأسئلة، حازت من المرونة ما مكنا من تجاوزها أحيانا وتعديلها أحيانا أخرى أو استبدالها بغيرها متى لزم الأمر.

ولأننا كنا نتوخى المقارنة بين الأوضاع السابقة والراهنة، وما بين الأجيال الأولى والمتأخرة من المهاجرين، فقد عمدنا إلى استدعاء ذاكرة المبحوثين وتحفيزها على التذكر والاسترجاع، من خلال صنف المقابلة البيوغرافية التي أضاءت لنا جوانب مهمة من الأحداث والوقائع التي ميزت التاريخ المحلي² لمجتمع الدراسة، وفي الوقت نفسه رسم صورة دقيقة عن مسار التحولات التي عرفتتها مجتمع الدراسة في صلة بنشاط الهجرة .

1. عن الهجرة بمجال الدراسة

يقع إقليم خريبكة³ في قلب المنطقة الوسطى، مستفيدا من قربه الجغرافي للعاصمة الاقتصادية (الدار البيضاء) ومنفتحا على مختلف المناطق والجهات المجاورة . عرف إداريا في العهد الاستعماري بتسمية تتصل بإحدى مدنه هي "وادي زم"، فكان يطلق عليه "إقليم واد زم" (الأسعد، 1993)، كما عرف أيضا بانتمائه جغرافيا إلى تادلا، أي السهل الممتد من مدينة خريبكة إلى بني ملال (أيكلمان، ج1، 1989).

وقبل الدخول في خصوصيات الهجرة وأسبابها بمجتمع الدراسة، يجب القول بأن هناك مناطق بعينها بالمغرب صدرت أعدادا مهمة من المهاجرين عبر مراحل تاريخية متفاوتة. نذكر منها سوس والريف الشرقي والشمال الشرقي، ومنطقة الجنوب

² . بين Halbwachs، أن الذاكرة الفردية تتقاطع مع الذاكرة الجماعية، دون أن تبعد عن فهم الحاضر، لأنها لا تشتغل إلا على ضوء عناصره، مما يجعلها أداة أساسية لفهم تفصلات الفردي والمحلي. :

Maurice Halbwachs, *Les Cadres Sociaux de la Mémoire*, Mouton, 1976, p. 141-142. Voir aussi : Jorge Ballan et Elizabeth Jelin « La Structure Sociale dans la Biographie Personnelle » : *Cahiers Internationaux de Sociologie*, vol. LXIX, 1980, p. 274.

³ . تعتبر خريبكة من فئة المدن المتوسطة التي توجد بين المدينة والقرية، فهي تستفيد من القرويين الذين تمدها القرية بهم، كما تحتفظ في الآن ذاته بروابط اقتصادية وتمتلات ثقافية متعددة معها، لهذا تعتبر صام أمان للمدن الكبرى المجاورة كالبيضاء، إذ تمنع التدفق الضخم لهجرة السكان نحوها؛ فقد تكونت هذه المدينة من خلال حركات هجرية من داخل المغرب بمختلف مناطق رافقت اكتشاف الفوسفاط وتصنيعه، وفي مراحل لاحقة من خلال هجرات قروية محلية أي من القرى والبوادي المحيطة بها. وكان مصيرها قد تحدد تاريخيا بالهجرة، هجرة عالية مستقطبة في بداية القرن العشرين وهجرة أخرى موجّهة نحو الخارج مع نهاية ثمانينياته .

الغربي. إلا أن ما يجعلنا نركز على مجتمع خريكة هو التنامي الملفت الذي مثلته الهجرة عبر مختلف أنواعها وأشكالها، القانونية منها وغير القانونية بدءا من ثمانينيات القرن المنصرم مروراً بفترة التسعينيات التي بلغ فيها منسوب الهجرة مبلغ الذروة، وكذا قوة الانعكاسات التي أفرزتها بهذا المجتمع اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا الخ .

كل ذلك لا ينبغي أن ينسبنا أنه في فترة زمنية وتحديدا سنة 1963، شجعت الدولة نفسها في سياق اتفاقيات متبادلة بين المغرب وفرنسا، الهجرة الدولية واعتبر المغرب رسميا بذلك بلدا مصدرا لليد العاملة. (chatto,1998) لكنه وبعد 1974 وتبعات أزمة البترول الدولية، وضعت مجموعة من الدول حدا لمقدم اليد العاملة الأجنبية العربية خصوصا بعد تنامي أعداد العاطلين عن العمل ببلداتهم والركود الاقتصادي الذي ميز هذه الفترة . من هنا ستتقلص الهجرة الرسمية لكن لفائدة أنواع سرية من الهجرة، سيستفيد منها أرباب مقاولات ومعامل أوروبية لكونها تضمن يدا عاملة رخيصة لا تحتاج ولا تنخرط في النقابات ولا تطالب المشغلين إلا بأبسط الحقوق (chatto,1999).

تعد خريكة إذن، واحدة من المناطق التي انطلقت منها أعداد مهمة في تلك الفترة، وبالتدريج ستشكل هذه الأجيال الأرضية الأولى لبني عموماتهم وقرباتهم للالتحاق. ساعدهم على ذلك سهولة الهجرة إلى إيطاليا ومرونة الاجراءات القانونية في التعامل مع المهاجرين قياسا إلى فرنسا مثلا. فإلى غاية 15 أبريل 1990 كانت الحدود الإيطالية مفتوحة دون تأشيرة دخول، هكذا تدفقت هجرات متتالية للمدن الإيطالية في فترة وجيزة، شأنها في ذلك شأن المناطق المحاورة كبنى ملال والفيقي بن صالح (المفضل، 1999).

ومثل غيرها من مناطق محددة بالمغرب، نستطيع أن نتبع محددات عائلية وقبائلية أحيانا لفهم اختيارات هجرية دون أخرى. وبالنسبة لإيطاليا تحديدا، فقد ابتدأت الهجرة إليها من إقليم خريكة مع هجرات فردية وبالتدريج صارت أسرية وعائلية وقبائلية ومناطقية (بالمعنى الجغرافي) (Lamchichi, 1999). وفي هذا الانتقال من هجرة فردية معزولة إلى هجرات جماعية بالمعنى الذي أسلفنا، ثمة تفاصيل دقيقة تتعلق بإبداع وسائل وابتكار أساليب جديدة لتحقيق الهجرة وتطوير آليات مختلفة واستراتيجيات اجتماعية خاصة.

وبالتوقف عند الشهادات الشفوية للمبحوثين، سنجد أن المراحل الأولى للهجرة، كان فيها المهاجرون في الغالب الأعم قرويين أميين (chatto,1998)، مفتقرين إلى أي مستوى تعليمي متميز، لذا مارسوا بديار الهجرة أنشطة زراعية وفلاحية بسهولة ويسر لكونها لا تتطلب كثيرا عن طبيعة الأعمال البدوية التي ألفوها بقراهم، وفي أحيان أخرى استطاعوا أن يمارسوا بعض

أنواع التجارة المتنقلة والبسيطة سواء في الساحات والفضاءات العمومية المزدحمة لفائدة ايطاليين أو مهاجرين ينتمون بدورهم الى جنسيات مختلفة. كانت هذه الأجيال الأولى تهاجر بمفردها، وتحديدًا كان المهاجر يترك زوجته وأبناءه بالمغرب وغالبا ما يكون ذلك بالبيت الكبير للعائلة أي تحت مراقبة أبويه وإخوته، أما العزّاب منهم فقد كانوا أكثر تحررا من العودة قياسا الى المتزوجين. بعد هذه المرحلة ستلتحق الزوجات بأزواجهن بديار الهجرة وإن كانوا قلة قياسا الى ما يجري بفرنسا أو بلجيكا. ويعتبر مشكل الالتحاق بالأسرة أو التجمّع الأسري "le regroupement familial" من المشاكل الكبرى التي أفرزتها الهجرة بدول محددة كفرنسا (Lamchichi, 1999). يتعلق الأمر بمشكلة الاندماج التي تخص الأبناء المزدادين بديار الهجرة ومدى تقبلهم وانخراطهم في الحياة الثقافية والاجتماعية للدول المهاجر إليها. غير أن واحدة من النتائج المباشرة لهذا الالتحاق الزواجي والتجمع الأسري، تمثلت في تأنيث الهجرة الذي بدأ بشكل تدريجي حتى صار ظاهرة مميزة سيما لدى فتيات عازبات قررن الهجرة للبحث عن فرص العمل . وقد استمر سيل الهجرة في التدفق وانتقلنا إلى فئات مختلفة وشرائح متباينة شملت حتى الطالبات اللاتي أتممن دراستهن أو توقفن عن متابعتها لسبب من الأسباب (صالح، 1993). عمّق هذا المعطى ظاهرة الهجرة وشجّع على الإصرار عليها من لدن الشباب، الذي وجد في العائلة والأقارب شبكات تضامنية مهمة أمدته بالدعم الاجتماعي والنفسي والثقافي الذي يحتاجه المهاجر عادة. وهو ما يميز أحياء خاصة ببعض المدن الإيطالية التي تأوي المهاجرين القادمين أو الجدد، كما تشهد تبادل الزيارات فيما بين المهاجرين أنفسهم . ومن العبارات التي تؤكد هذا المعطى العائلي والقبلي والمستعملة من قبل الباحثين : (كنمشي لعند بني عمي— دياولنا —خوتنا— أصحابي— شي وحدين من عندنا...) .

وفي مستوى آخر ومع توالي السنوات والأجيال، حوّل هذا المعطى نفسه عملية الهجرة من "هجرة مؤقتة" إلى "هجرة شبه دائمة" أو هجرة إعمار "Migration de Peuplement" أحيانا،. (chatto, 1998) وان كان إعمارا مؤقتا مقارنة مع هجرة الإعمار بفرنسا، طالما أن المهاجرين إلى ايطاليا ظلوا متشبثين بالعودة لبلداتهم بين الحين والآخر. فقد لمسنا ارتباطهم بأسرهم وعائلاتهم وذويهم من خلال ما تم التصريح به في المقابلات الميدانية المختلفة، حيث اتجهت شهاداتهم إلى تأكيد ضرورة "العودة للبلاد" وتحويل مدخرات العمل إلى استثمارات أو مشاريع بمجتمعاتهم المحلية وتحديدًا بمدنيتهم . فليست هناك هجرة الى الأبد، بل هناك أفق للعودة باستمرار، مهما كانت مدة الإقامة والإعمار، لهذا يشتغل المهاجر عادة بذهنية اقتناص فرص للعمل وجمع أكبر قدر ممكن من المال وبمختلف الوسائل لتأمين مستقبل قار بالديار(أعراب، 2013).

ويجسد الذهاب والإياب بين المغرب وإيطاليا، دليلا قويا على هذا الارتباط ، متزامنا مع الأعياد والمناسبات الدينية تحديدا لطابعها القداسي والثقافي، حيث تتجمع الأسرة والعائلة والأقارب، الخ . فالمهاجر يقضي فترة من الزمن في العمل بالخارج، ثم يعود لزيارة الأسرة والأهل، وقد تصل وثيرة الذهاب والإياب إلى مرتين أو أكثر في السنة، بالمقابل تتقلص وثيرة هذه الرحلة لدى المهاجرين العزّاب، ويستثنى من هذا الترحل طبعا المهاجرون بطرق غير شرعية ممن لم يستطيعوا الحصول على أوراق الإقامة(صالح،1993).

2. من فعل الهجرة إلى ثقافة الهجرة

تمثل الثقافة الهجروية بالمعنى الذي نتحدث عنه، بناء ديناميا مادام نتيجة بلورة وإعادة بلورة مستمرة للأفراد بالنظر إلى واقعهم المعيش، فالثقافة الهجروية سعي حثيث دائم ومستمر لتحديد الذات والمكونات، وهي تستدعي تكيفا مطلوبا مع واقع جديد تصنعه صنعا، تطبّع معه وتتكيف مع متحولاته، كما تتمتع بقدرة دينامية مستمرة على التكيف "Dynamique D'adaptation" مع سياقها الاجتماعي والاقتصادي والجغرافي.

يسمح لنا هذا المفهوم بتجاوز التصور السريع والمختزل لواقع الهجرة بمجتمع الدراسة؛ فمن خلال قوة الشواهد الميدانية وباستنطاق الواقع البحثي، نلمس أن الفعل الهجروي لم يعد فرديا وإن كان كذلك في ظاهره فهو غير مفصول عن أنماط الفعل المحددة اجتماعيا . إنه فعل امتثالي لقوة جماعية دافعة وضاغطة بالمعنى الدوركهايمي للكلمة "Poussée Collective" ولعل بعدها الجماعي المتزايد يؤكد هذا المعنى، حتى حينما يتحدث المهاجرون عن تجاربهم في بعدها الفردي من حيث هي خيارات ذاتية، فإن هذا المستوى لا يتجاوز حدود المصرح به، لأن هناك في الواقع متخيل هجروي قوي يدفعهم الى التفكير في الهجرة وممارستها .

لا ننسى أيضا أن هناك ملامح واضحة لتنشئة اجتماعية وثقافية هجروية أو لتطبيع هجروي، فقد ارتبطت حياة الأفراد بمجتمع الدراسة بنشاط الهجرة واقتصادياتها وعائداها المادية، وبالنظر إلى الضغوط التي يمارسها هذا الفعل وإغراءاته المادية، نستطيع إدراك أن ثقافة الهجرة تنتج واقع الهجرة كما ينتج واقع الهجرة ثقافة خاصة به وتنشئة تناسبه؛ إنه وضع ينتج باستمرار مزيدا من المهاجرين أو المرشحين للهجرة. ولعل من خصوصيات هذا التطبيع الثقافي الهجروي أنه يعمق الانفصال عن المجتمع الأصلي للمهاجر ويعزز لديه مغادرته والابتعاد عنه : (مابقي ما يدار ما كاين والو العيشة هي لهيه ماشي هنا...) خلافا لما ينتظر من أي تنشئة اجتماعية سوية تزيد الأفراد التصاقا بمجتمعاتهم وتخلق الرضى عن واقعهم ومعيشهم .

بالضد من ذلك كله، تتجه التنشئة المحجورية إلى التشجيع على مغادرة الأرض والمجتمع وتضعف الرابط الاجتماعي بهما . فهي تنشئة طاردة. مفهوم الجغرافي الألماني Ernest George Ravenstein_ وترداد قوتها مع ما توحى به الصبغ اللغوية والعبارات المستعملة حول التجارب الناجحة للمهاجرين وتصويرهم كأبطال حقيقيين بعبارات لا تخلو من بعد ذكوري، لأنهم استطاعوا أن يحسنوا أوضاعهم وأوضاع أسرهم وينقذوهم من وضعيات مأزومة اقتصاديا: (رجال_ كآبابل_ كادّين_ شخوشة_ بلاوات).

وفي مستوى آخر نجد أن ثقافة الهجرة، إلى جانب القيم المشجعة على الهجرة والتطبيع المحجوري، استطاعت أن تصنع لنفسها شبكة تخرق النسيج الاجتماعي، وهي تقوم على ثلاثة أطراف أساسية هي :

أولا، الزبناء: وهم المرشحون للهجرة من مختلف الأعمار والفئات والشرائح الاجتماعية؛ ثانيا، الوسطاء: وهم فئات مختلفة تنتمي لقطاعات سوسيو مهنية مهيكلة أو تمارس مجموعة من الأعمال والأنشطة المتراوحة ما بين الصغرى والمتوسطة وهي تجتهد في إيجاد زبائن للهجرة، منهم موظفون صغار وأعوان ونساء ربوات بيوت كذلك . ثالثا، المهجّرون أو "الحراكة": وهم محترفو نشاط تهجير الفئات الراغبة في الهجرة بمختلف الطرق والوسائل التي تناسب المعنى بالهجرة. وهم لا يوجدون بالضرورة بمجتمع الدراسة وإنما يتركزون أساسا في المدن المطلة مباشرة على البحر الأبيض المتوسط، مثل طنجة والناظور .. .

يعد "الحريك" من أشهر أصناف الهجرة السرية وهو يتضمن من العنف والخطورة ما يتضمنه بالنظر إلى حجم المآسي والويلات التي تكبدتها أسر وعائلات ودواوير وأحياء بأكملها (أعراب، 2013) ، بسبب فقدان أبنائهم في عرض البحر⁴. ومن جهة أخرى للحريك قاموسه وقواعده ورجاله ومنفذوه ووسطاؤه وزبائنه والمستفيدون منه؛ فهو نشاط شبكات متخصصة تمارس عملها التهجيري واقعا وبالتوقف عند دلالاته اللغوية المباشرة، سنجد أنه يتصل بالإحراق. لكن كيف يتم الإحراق أو الاحترق بالمرور بحرا ؟ إنه معنى مجازي يكتنف دلالة التخلص من الأوراق القانونية والتجرد من أي هوية واضحة وركوب البحر، تماما مثلما نشير إلى عدم التوقف في علامة قف بإحراق الضوء الأحمر أو العلامة المروية .

⁴. يكفي أن نشير أنه توفي أكثر من 64 شخصا من جاعة "الفقر" وحدها، شهر شتنبر 2004 بعد غرق سفينة عبور، كانت تتجه بهم من تونس نحو إيطاليا، وخلال زيارتنا الميدانية لدوار شرقاوة بالجماعة المذكورة، وجدنا أن مجموعة من الأسر فقدت أحد أبنائها في نفس الحادث. يتعلق الأمر إذن بظاهرة قوية ممتدة وثة أصرار عليها رغم ويلاتها، لأن لها أيضا في حال نجاحها عائدات مهمة وكبيرة؛ فقد استطاع أبطالها وهم فتيان شباب في بضع سنين قليلة من مراكمة الأموال وإقامة استثمارات مادية مغرية. سرعان ما تدفع فئات ونماذج أخرى للقيام بنفس المغامرة .

ثم هو إحراق لأنه يتضمن دلالة السرعة مثلما يحيل على ذلك المعنى الفيزيائي عند اشتعال الوقود بالحرك الميكانيكي، فهو إنجاز سريع ومروق من المغرب إلى أوروبا بسرعة غير معتادة، كما أنه أيضا احتراق في الحالة التي ينتهي فيها الحارك/ العابر غرقا في عرض البحر وبسرعة قوية ينتهي جسده أو يختفي كلية .

بناء على هذه الدلالات العميقة، يحيل الحريك على دلالات نارية غير مفصولة عن الانتحار أيضا كشكل أقصى للمغامرة وتدمير الذات وإفنائها في عرض البحر. لكن ألا نكون هاهنا بصدد الرغبة في الاحتراق وإلقاء الذات خارجيا، هروبا من الاحتراق الداخلي والاكثواء بواقع مر يعيشه المقدم على مغامرة الهجرة؟ أليس الحريك هو الاحتراق والتشوق لمغادرة الوطن صوب الضفة الباردة والأكثر طراوة طبعاً لأنها في النهاية رحلة من الجنوب إلى الشمال ومن الأسفل إلى الأعلى ومن الأذن إلى الأرقى على الأقل وفقاً لتمثل المعنيين بالفعل الهجروي؟

مهما يكن، فإن الكلفة الكبيرة للحريك هي الموت في بعده الدرامي المفجع⁵، ولعل الإصرار عليه من مختلف الشرائح والفتنات يوضح لنا عنف هذه التجربة ولا معقوليتها، بعد أن صار الحريك بمثابة ثقافة قائمة الذات انسجما مع مفهوم التشبيك الذي أشرنا إليه سابقا، فهناك شبكات متخصصة لها تجارب احترافية في تهريب كل شيء حتى البشر. ثم إنها ثقافة تطورت وتكيفت مع واقعها باستمرار، فقد ابتدع أطفال صغار أشكالا معينة من التسلل عبر الحاويات و بين عجالات الشاحنات الكبرى ... وهي أيضا لا تقل درامية عن عبور البحر من خلال القوارب المطاطية الصغيرة، كما برزت آليات وطرق جديدة كالحريك عبر المطارات وتحديد عبور بعض الدول التي تكتفي بجواز السفر دون تأشيرة، ومنها يتم التسلل بالاعتماد على وساطات تعمل مع شبكات متخصصة في هذا المجال . ولأنها ثقافة تحايلت على القانون فلها قاموس يخصها، فجواز السفر المزور مثلا، يعرف بـ "المدكوك" أو "المدرح" ... الخ . وهي تسميات تلخص جزءا كبيرا من عمليات التزوير لأوراق الإقامة وعقود العمل أو للصور الفوتوغرافية التي توضع على جوازات سفر سليمة مسروقة أو لأقارب غامروا بإنقاذ اخوانهم العاطلين وتأمين وصولهم إلى الضفة الأخرى .

⁵ . لعل أقل ما يمكن أن يقال عن ظروف تهريب المهاجرين عبر القوارب المطاطية الصغيرة أنها كارثية بكل المقاييس، لهذا تعرف بقوارب الموت، لأنها تقرب الموت من المهاجر العابر أو لعلها تقربه من الموت المحتوم، ولئن كانت في حالات أخرى تدعى قوارب نجا بالنسبة للبعض ممن حالفهم حظ الهجرة، ففي النهاية الأمر أشبه بمغامرة تختمل النجاح أو الفشل .

3 . مجتمع انطلاق الهجرة أم مجتمع مهاجر؟

تعد الهجرة باقليم خريبكة صانعة تحولات كبرى، فلها آثار عديدة فردية وجماعية ويبقى أن التحولات التي استطاعت

إحداثها على مجتمعات الانطلاق كبيرة نذكر منها :

— بروز أسر مهاجرة في مقابل أخرى غير مهاجرة كتصنيف جديد يخترق المجتمع المحلي، ومن ثمة إعادة الترتيب الاجتماعي

بفعل نشاط واقتصاديات جديدة خلقتها الهجرة (خلافا لمراحل سابقة كان فيها العمل بالمكتب الشريف للفوسفاط أو الالتحاق

بوظيفة عمومية يحيل على مكانة خاصة) .

— استفادة أسر المهاجرين من عائدات أبنائهم المادية وتحويلها الى امتيازات رمزية أيضا داخل مجتمعاتهم المحلية .

— بروز نمط استهلاكي جديد يتسم بالتفاخرية (ostentatoire) والمظهرية (البيان) والإسراف وهو ما يتجسد في

الأعراس والمآدب والمناسبات المختلفة .

— تشجيع الهجرة القروية بالانتقال إلى الفضاء الحضري والإقامة به بعد تحسن الأوضاع الاقتصادية للأسر المهاجرة .

— فراغ مجموعة من الدواوير القروية من شبابها أي من طاقاتها ويدها العاملة الأساسية .

— الابتعاد عن الحياة القروية وتبخيس العمل القروي .

— ضياع المهارات والمعارف القروية المحلية

— خلخلة النسق الاجتماعي والقيمي، من ذلك مثلا :

+ إحداث تصدّعات في بنية الأسرة والحوار (أسر هاجر كل الأبناء باستثناء الأب والأم) .

+ تفتت الأسر وضعف اللحمة الاجتماعية.

+ تراجع أهمية التمدرس كأداة للحراك الاجتماعي أمام اغراءات الهجرة .

+ تراجع الحراك القائم على المدرسة والتعليم عموما .

+ تعزيز منطق الانتهازية الاجتماعية والاعتناء السريع بركوب مغامرة الهجرة .

وعلى مستوى القيم، نجد أن الهجرة تمكنت من بناء متخيل ثقافي هجروي يتسم بمجموعة من الملامح نذكر منها هاهنا:

+ التفكير الدائب والمستمر في الهجرة كحل أوحد للبطالة أو من أعمال تعتبر في نظر المرشح للهجرة، أقل قيمة وأقل

مردودية، خصوصا تحت ضغط التنافسية القائمة على الفعل الهجروي .

+ صارت الهجرة حلما بالنسبة للفتات الشابة وللأطفال والمراهقين فتيانا وفتيات، متمدرسين وغير متمدرسين، مما يوسع قاعدة المرشحين للهجرة باستمرار.

+ التأهب للهجرة بانتظار أقرب فرصة ممكنة أو البحث عنها، بإبداع حيل واستراتيجيات أنتجها واقع الهجرة .
+ الاحتراق والتشوق لخوض تجربة الهجرة، وقد يتعمق هذا التخيل مع أخبار المهاجرين وتوافدهم باستمرار، سيما أمام المظاهر التفاخرية التي يمارسها المهاجرون قصدا أو عن غير قصد (سيارات فارهة _ بناء شاهق _ العائدات المادية) .
+ أمست الانتظارية واقعا يعيشه مجموعة من الشباب، ينجم عنه من الكسل المكتسب ما يصنع من الفرد مجرد كائن يعيش ويوجد فقط ليهاجر، بعيدا عن أي غاية أخرى ممكنة .

+ الارتباط وجدانيا وعاطفيا بدول أوروبية محددة كإيطاليا التي صارت بمثابة مدينة مجاورة، سهل ذلك تطور وكالات الأسفار التي لها خطوط مباشرة بين خريكة ومدن إيطالية أكثر من مرة أسبوعيا.

+ مراكمة الأخبار عن هذه الدول في إغفال تام وواضح لما يجري على الصعيد المحلي أو الوطني .
+ فصام قوي وعنيف أيضا تعيشه الفئات الشابة بأجساد مقيمة بالمغرب مشدودة فيزيقيا إلى الأرض، لكنها تتلخّج بخيال منبهر ومرتبّط ببلدان الضفة الأخرى للبحر الأبيض المتوسط، يصل حدّ التحدث بعبارات أو جمل إيطالية.
+ الافتخار بممارسة نشاط الهجرة والانتساب إلى الأسر المهاجرة .

+ كما لمسنا في مستوى أعمق، أن تصور الذات لدى الفرد بعيدا عن الهجرة يبقى مهزوزا، طالما أن المهاجر لإيطاليا نموذج للنجاح الاجتماعي والاقتصادي؛ تلخصه عبارة "صحاب برّى" أو "مالين برّى"، بينما يحتفظ بلفظة "زماكري" كتوصيف قدحي خاص بالمهاجر إلى فرنسا؛ وهو ما يعكس بالنسبة لنا خيارات الهجرة وأفضلية وجهة على أخرى وفقا لتمثلات المهاجرين أنفسهم . ففي الوقت الذي يشار إلى فرنسا بالعنصرية والبخل والصرامة والتشدد، يشار إلى إيطاليا بأرض الخير والثروة السريعة وينعت أهلها بـ "أولاد الناس"... الخ.

أحيانا، وأمام مثل هذا الاصرار القوي، يبدو الانشداد للهجرة ممارسة واعية ومفكرا فيها، فهي قرار قوي بالنسبة للكثيرين خلافا للصورة التي يمكن تمريرها أحيانا حتى من قبل الفاعلين الاجتماعيين المعنيين بهذا الفعل . فقد صار توصيف "مهاجر" بمثابة عمل علما أنه ليس كذلك، لأن المهاجر في النهاية يمارس عملا خاصا بديار الهجرة، غير أنه في التمثل المشترك وفي التداول الشائع مهاجر، إنها بمثابة شهادة عمل يقدمها المجتمع للمهاجر "كيمشي لبرّى". الأبناء أنفسهم يعرفون بين أترابهم بأنهم أبناء

مهاجرين لا عاملين بالخارج، فحينما توجه السؤال إلى أحدهم يجيبك بأن أباه مهاجر أو بالعبارة المحلية "كيمشي لبري أو للطالان" أو "طالان". منتهى الاختصار .

وللحصول على الاعتراف الاجتماعي الرمزي وبلوغ الخطوة التي تحققها الهجرة، يتم التنازل عن أشياء كثيرة ومنها القيم التي كان الفرد يتشدد بها في بيئته القروية؛ ومنها تراجع السلطة الذكورية أمام هجرة الفتيات والتطبيع مع بعض أعمالهن المريبة خارج الوطن أو الانفلات من المراقبة التي كانت تلاحقهن به. ففي مجتمع يحسن التفاوض والمساومة ويجد للتواطؤ والتنازل مسميات غير مسمياتها الحقيقية، تبرز قيم جديدة تحقق المهادنة والتوفيق أو بالأحرى التلفيق المطلوب، قيم مشبعة بالنفحة المادية المرسلة والنقدية "Valeurs Marchandes" تسمح ببيع الأرض التي كانت بالأمس القريب عرضا لا ينبغي التفريط فيه، كما تنتعش بنفس القدر ذكوات خاصة، منها ما ندعوه ذكاء الحيلة، ممثلا في السعي الحثيث لاقتناص أقرب فرصة لتحقيق حلم الهجرة، امتدت إلى إنتاج استراتيجيات زواجية هجرية تمكّن من العثور على زوج مهاجر أو زوجة مهاجرة .

هكذا صار الزواج ذاته والتفكير في شريكة الحياة خيارا براغماتيا صرفا تمثله أنواع من الزواج الأبيض الذي يستحيل مع مرور الوقت الى زواج حقيقي، بعيدا عن الحسابات الأخلاقية المتمسكة بالعفة والسيرة الطيبة للزوجة أو حتى التكافؤ المفترض في السن كحد أدنى بيولوجي.. ولهذا ينعت البعض هذه الأشكال بصفقات الزواج: "يديها أو تديها لبري" هذه هي العبارات التي صارت متداولة منذ فترة غير قريبة . إنه الإقدام على خيار زواجي مفكر فيه لا يقل براغماتية عن أي ممارسة اقتصادية أو استثمارية؛ ومرة أخرى يبدو الفعل الهجروي فعلا واعيا وقصديا وغير مفصول عن منطق المصلحة في بعدها الاقتصادي.

ومع تطور ظاهرة الهجرة بإقليم خريكة، برزت قيم وسلوكات مساوقة، نذكر منها تحديدا زواج شابات مغربيات من أجنب، وهنا تلعب شبكات وساطة محلية متخصصة في استجلاب أجنب مسنين يرغبون في قضاء سنوات التقاعد مع فتيات لا يتجاوز سنهن العشرين ربيعا في الغالب، ويتلقى هؤلاء الوسطاء مبالغ مالية مهمة من الطرفين، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل تتعرض هاته الفتيات إلى الاستغلال الجنسي في شبكات الدعارة في إيطاليا أو غيرها من البلدان المهاجر إليها.

لقد أصبح الزواج الأبيض وسيلة أساسية للحصول على المال، و وسيلة لتزويج الفتيات كحل لمشكلة العنوسة ولتهجير الشباب القروي العاطل . تستثمر الأسر المهاجرة في هجرتها بإعداد أوراق الإقامة لبناتها، وبالتالي تضمن عريسا مناسبا أو يتم اختياره بالشروط التي يطلبونها، بالمقابل تجد الأسر التي تقدم الذكور في هذا التبادل فرصة ثمينة لإنقاذ أبنائها من البطالة. وعموما فقد تحولت صفقات الزواج المرتبط بالهجرة، إلى شكل جديد من أشكال تبادل الزواج بين الأسر (أعراب، 2013)، كما

استشرت ممارسات أكثر تكتمًا وسرية، كالارتباط بمثليين أحانب باعتبارها فرصة للخلاص من هنا نحو هناك، أو الارتقاء في أحضان شيوخ أجانب أمّوا حياتهم العملية ببلداتهم ووجدوا في فتيات شابات مصراّت على الهجرة وحالمات بمغادرة الوطن، حضنا دافئا لبداية حياة زوجية جديدة .

يبقى أن نؤكد، أن الزواج من مهاجر أو مهاجرة كسبيل للهجرة، يجسد نوعا من إعادة الإنتاج للأسر المهاجرة لذاتها وتأييدا اجتماعيا لمجتمع الهجرة. وهو ما يرسخ مرة أخرى منطق الهجرة ومغادرة الأرض والبلد، باسم مبررات عديدة منها، تأمين مستقبل الأبناء بضمن عيشهم خارج البلاد : "برّى" وفي تعبير آخر "الخارج"، أي بعيدا عن الذات الجماعية / نحن أو بعيدا عن الأهل والقارب والقيم الثقافية والمجتمعية المحلية .

خلاصة

ظل إقليم خريكة طيلة الثلاثين سنة الماضية أسير الهجرة الدولية التي استطاعت ان تلحق آثارا عميقة بمجتمعه وأفراده وأنشطتهم وأحلامهم، لأنها كما أوضحنا لم تؤثر على الاقتصاديات والإنتاج فقط، بل استطاعت أن تخلق ذهنية ثقافية مساوقة لواقع هجروي خاص. واليوم رغم التراجع الملموس الذي مس أعداد المهاجرين لإيطاليا قياسا إلى ثمانينيات وتسعينيات القرن المنصرم، وعودة أفواج من المرحّلين أو الذين قرروا الإقامة نهائيا بإقليمهم، فإنه من الصعب أن نؤكد أن هذا التيار الهجروي توقف، وهو ما تعكسه شهادات المبحوثين وتصريحاتهم . لقد تجذرت الممارسة الهجروية بهذا المجتمع بعد أن صارت ثقافة وذهنية صلبة ما تفتأ تعيد انتاج نفسها باستمرار.

ولأن الهجرة أنواع كما أسلفنا، فقد برزت هجرات أخرى عبر النيت أو الشبكة العنكبوتية، إما لاستعارة فتاوى دينية من مشايخ قنوات ومواقع خاصة وبالتالي استعارة نماذج مشرقية لا تناسب خصوصياتنا الفقهية ولا الواقعية، أو للإبحار قصد تصيد الفضائح الأخلاقية والجنسية تحديدا، بغاية التكبّس وابتزاز أبطالها سواء أكانوا من أثرياء العرب أو من بعض الشخصيات المهمة في المجتمع؛ فهل من قبيل المصادفة أن كشفت الأحداث الأخيرة عن وجود عصابات متخصصة في هذا النوع من الابتزاز الإلكتروني بوحدة من مدن الاقليم المنسية وهي وادي زم؟

لمواجهة هذا الصنف من الهجرة أو ذاك، نؤكد أننا ما زلنا في حاجة ماسة الى تطوير سوسيولوجيا الهجرة وأنثروبولوجيا الهجرة وإثنوغرافيا الهجرة كذلك . ولعل النجاح في هذه التحديات المعرفية يستلزم بنفس القدر الاستفادة من الدراسات والأبحاث

الأجنبية المتطورة في هذا الباب، وفي مستوى آخر بلورة أنماط تفسيرية خاصة للفعل الهجروي وللممارسات الهجروية التي تخترق المغرب المتعدد .

يعزز هذه القناعة لدينا، أنه لا توجد نظرية كلية تفسيرية للهجرة مثلما يؤكد René Duchac، ولهذا ينبغي أن تتجه المساعي الى بذل مزيد من الجهد لتأطير الظاهرة فهما ودراسة، سيما أنها عرفت تحولات سريعة وأفرزت أشكالاً جديدة أكثر تركيباً وتعقيداً من المراحل السابقة . ويكفي أن نشير إلى أن المغرب لم يعد بلداً مصدراً للهجرة فقط، بل صار بدوره بلداً مستقبلاً وبلد عبور في نفس الآن؛ من هنا فثمة تحديات كبرى تطرحها قضية الهجرة بمغرب القرن الواحد والعشرين وعليه مواجهتها ليس بالمقاربة الأمنية وحدها وإنما بمقاربات فهمية أولاً، تتجه إلى تعزيز منطق المعرفة قبل منطق التدخل وصنع القرار.

المراجع:

1. أعراب (عبد الهادي): "من اكتشاف الفوسفات إلى الهجرة الدولية: قراءة في مسار تحول اجتماعي": السوسيولوجيا والتحويلات الاجتماعية بالمغرب، أعمال مختبر التاريخ والعلم والمجتمع، تنسيق عبد الهادي أعراب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الجديدة، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 19، 2013.
2. أيكلمان (ديل)، الإسلام في المغرب، الجزء الأول، ترجمة: محمد أعيف، دار توبقال للنشر، ط. I، 1989.
3. المفضل (أحيان) "المغاربة في إيطاليا، من الهجرة المفتوحة إلى إجراءات الطرد": الهجرة السرية، الرهانات والآفاق، أشغال ندوة 29 و30 بكلية الحقوق، الرباط، أكدال 1999.
4. صالح (منير) " الاندماج الحديث لسهل تادلة ضمن نسق الهجرة الدولية": جغرافية المدن، المجلد 15، السلسلة الجديدة، العدد 1 و 2، 1993.
5. الأسعد (محمد) "مسألة الاندماج المحلي لإقليم خريبكة في عهد الاستعمار الفرنسي للمغرب (1912-1956) دراسة في الجغرافيا التاريخية": ندوة المقاومة بإقليم خريبكة، المندوبية السامية لقدماء المقاومين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بن مسيك، البيضاء، 1993.

6. Ballan (Jorge) et Jelin (Elizabeth) « La Structure Sociale dans la Biographie Personnelle » : Cahiers Internationaux de Sociologie, op.cit, vol. LXIX, 1980.
7. Bentahar (Mekki), Les Arabes en France, SMER, Rabat, 1979.
8. Chatto (Zoubir), Migrations Marocaines en Europe , Le Paradoxe des Itinéraires, l'harmattan, 1998.
9. Chatto (Zoubir): "Les Marocains entre ici et là-bas": Immigration et Intégration: L'état des savoirs, éd, la découverte, 1999.
10. Halbwachs (Maurice), Les Cadres Sociaux de la Mémoire, Mouton, 1976.
11. Lamchichi (Abderrahim) "L'immigration marocaine en France ,changements et ruptures": Conférences Méditerranée, n: 31, Automne, 1999.
12. Mahdi (Mabrouk) : "el- harikoun . pour une approche sociologique du milieu social des immigrés clandestins et de leur immigration": Revue Tunisienne des sciences Sociales: 125, Tunis. 2003.
13. Sherzer (Joel):" langage et culture : une approche centrée sur le discours" : Langage et société ;n:139,2012.